الاحوال في تركيا الحاضرة

لم تكد مدارس الاوربيين والاميركيين تنير اذهان الناشئة في السلطنة العثمانية بعد اواسط القرن الماضي حتى تراءى لها ان البلاد التي استولى عليها العثمانيون في اسيا واوربا وافريقية كانت مهد العمران وكان يجب ان يبقى لها السبق على غيرها من الممالك فنسبت اكثر انحطاطها الى حكومتها حتى اذا حدث الانقلاب العثماني في بداءة هذا القرن هنأ الناس بعضهم بعضاً ورجوا ان يكون لبلدان السلطنة العثمانية عصر جديد تسترد فيه ما اضاعتهُ القرون الغابرة . ولكن لم يحدث شيء من ذلك لان العلّة كانت قد تمكنت بمرور الزمن وكان لابدَّ من تغيير جوهري ينزع القديم بحذافيره. ثم جاءت الحرب وتمزقت السلطنة ولكن قام من الاتراك زعماء اشداء عرفوا حقيقة الداء ورأوا انهُ يستحيل عليهم ان يداووا جسماً كبيراً مختلف الاجناس متشعب المذاهب فقادهم العقل الى الاكتفاء بامتهم التركية وبالبلاد التي هم الاكثرية الكبرى فيها فعملوا وصدُّوا عنها اليونان والفرنسويين ببسالة ومهارة تفوقان الوصف ونقلوا عاصمتهم من القسطنطينية وهي من اعظم العواصم واجملها الى انقرة وهي مدينة صغيرة في قلب بلادهم لكي يبعدوا عن دسائس اوربا فيتمكنوا من السير في الخطة التي اختطوها لحكومتهم . ثم قلبوا نظام الحكم العثماني رأساً على عقب اداريًّا ودينيًّا واجتماعيًّا واتوا اعمالاً ادهشت العالم لم يُقدم على مثلها احد ولا رجال الثورة الفرنسوية ولكنها لم تدهشنا لان المرض العضال لابدَّ لهُ من اقوى انواع العلاج

ومنذ عهد غير بعيد لقينا رجلاً من وجهاء هذا القطر زار الاستانة وانقرة واطّلع على اعمال الجمهورية التركية فقص علينا من الاخبار ما لو صحَّ كلهُ وخلا من المبالغة لصارت تركيا سيدة ممالك اسيا بعد زمن غير طويل ولم تفقها الاَّ اليابان لكثرة عدد سكانها ولضارعت ارقى ممالك اوربا التي تماثلها في عدد سكانها مثل بلجيكا وهولندا

وفيما نحن نفكر في ذلك ونبحث عمَّن يزكي شهادة هذا الوجيه طلعت علينا مجلة القرن التاسع عشر الانكليزية لشهر مارس وفيها مقالة عن تركيا بقلم اللس شرغون وهو معروف بدقة النظر وصدق القول فاذا هي تؤيد كل ما قالهُ لنا ذلك الوجيه. فبادرنا الى اقتطاف جانب كبير منها حتى اذا كانت نتيجة الخطة التي سارت عليها الجمهورية التركية النجاح التام ساغ لغيرها من البلدان الشرقية ان تقتدي بها

قال الذين شرّعون ان تركيا الجديدة تختلف عن تركيا القديمة تعليمًا واقتصاديًا واجتماعيًا ودينيًا . فهل تصل الى غايتها المرومة كشعب نشيط ناظر في العواقب · هذا امر ستبيّنهُ الايام ولكن لا شبهة في انها ساعية الى ذلك بهمة الشباب وثقتهم بانفسهم · ولعل اظهر تغيير حدث في تاريخها هو خلعها سلطانها والمناداة بالحكومة الجمهورية فتركت الاستانة ونقلت عاصمتها إلى انقره فبعُدت عن الدسائس والمداخلات الاجنبية التي كانت سوقها رائجة في العهد الحميدي لتستقل استقلالاً تامًّا · واتخاذها انقرة بدلاً من الاستانة يدلك على مقدار التضحية التي ضحّى بها الاتراك في سبيل استقلالهم الوطني كاملة . فان الاستانة من اجمل مدن المسكونة وسكانها من اكثر سكان العواصم ومرفأها من اكبر مرافئ اوربا . واما انقرة فمدينة صغيرة بين الجبال يصل اليها فرع من فروع سكة الحديد ليس فيها بناء من المباني الفخمة ولا دار تسع دواوين الحكومة اسواقها ضيقة متعرجة لم يكن فيها شيء من التدابير الصحية الحديثة . الناظر اليها يرى من اول وهلة انهُ لم يكن في الامكان اختيار مكان للعاصمة اقل ملاءمة منها · ولكن الرجال الذين وطّنوا انفسهم على انشاء جمهورية جديدة غير مقيدة بقيود الماضي ولا هي عرضة لمداخلات الدول رأوا انهم يكونون فيها احراراً ليفعلوا ما يشاؤون فيبنوا بناء مملكتهم مقتبسين اصلح الاساليب الاوربية وهم بعيدون عن الاوربيين

رأوا ان النفعيين طلاّب الامتيازات في العهد الحميدي استولوا على المناجم وسكك الحديد والبنوك وامتيازاتهم تخميهم من دفع الضرائب فارادوا الابتعاد عنهم. قال السر مارك سيكس في مجلس النواب البريطاني « ان تصرّف الماليين الاوربيين كان افعل في افساد الادارة التركية من كل ما فعلتهُ تركيا القديمة وتركيا الحديثة ». وقال الاستاذ جون دوي الفيلسوف الاميركي بعد ما زار الشرق الادنى « ان الاشفاق على السكان اكثر بهم واقلهم لا يبقي محلاً لشعور آخر سوى الغيظ من الدول الاجنبية التي استخدمت مصائب السكان لتنتفع منها بلا شفقة ولا حنان ». فنقل العاصمة الى انقرة قضى على ذلك كله

والدستور الجديد والبارلمان الجديد والقوانين الجديدة والمحاكم الجديدة اصطبغت كلها بصبغة الادارة الجديدة وصارت السلطة للشعب بعد ان كانت للسلطان وللشريعة فانتقلت تركيا بكليتها من الماضي الى المستقبل من الشرق الى الغرب من استبداد الفرد الى حكم الجمهور . وكان محور هذا الانقلاب مصطفى كمال باشا فهو وشنطون وروزفلت

مجتمعين فانهُ سيامي محنك وجندي مخلوق للقيادة الرجال وهو اقدر رجل بين رجال السياسة المعاصرين . ولد بسلانيك منذ اربع واربعين سنة ونشأ جندياً وكان ياوراً لانور بك فحارب وامتاز في حروب الثورة التي قامت على عبد الحميد وفي طرابلس الغرب والبلقان وهو الذي تغلَّب على الجنود البريطانية في العراق وامر قائدهم الجنرال توزند وهو الذي احبط هجوم الجنود البريطانية في غاليبولي . والمرجح انهُ لم يقم بين قواد المانيا وحلفائها في الحرب الاخيرة من امتاز اكثر منهُ بكثرة المعارك التي فاز فيها . كانت الدائرة تدور على الاتراك في كل المعارك التي دخلوها في هذه الحرب الى ان قام مصطفى كمال فاذا هو مثل وشنطون محرر اميركا لا يقف في وجهه احد . ولقد كان من امرهِ انهُ وضع الشروط التي يريدها في مؤتمر لوزان واضطر الدول الى قبولها وقد وقف في اغسطس الماضي وتكلم كرئيس للجمهورية التركية فوصف الحالة الحاضرة ملخصاً بقولهِ

« ان الغرض من التغيير الذي احدثناهُ ولا نزال جارين فيهِ هو ان نحوِّل اهل هذه الجمهورية نظاماً اجتماعياً من احدث النظم ومن اكثرها مطابقة للعصر الحاضر . يجب علينا ان نطرح كل فكر لا يتفق مع هذا المبدإ القيم . يجب ان نقتلع كل الخرافات من عقولنا والتعصبات من عاداتنا . عارٌ على الامة الحية ان تعتمد على الاموات . لا ارضى ابداً ان يبقى في المجتمع التركي المتمدن تلك العقول التي تتطلَّب خيرها الادبي والمادي من شيخ قد يعمل على ضد ما تطلبهُ العلوم الحديثة

« يا اخواني تعلمون ان تركيا لا يمكن ان يبقى شعبها دراويش ومشايخ وتلامذة الدراويش والمشايخ . فان الشعب الحقيقي هو الشعب الذي يكون عضواً في محفل الامم المتمدنة »

ثم ان هذه النهضة السياسية التي جعلت الاتراك يعتقدون العزيمة على ان تكون لهم السيادة المطلقة في وطنهم حملتهم على الغاء الخلافة لكي يكون لهم الاستقلال التام عن غيرهم من الشعوب الشرقية ولما الغوا الخلافة فصلوا بين الدين والسياسة وجعلوا التعليم كلهُ مدنياً وقرَّروا ان يكون للحكومة حق الرقابة عليهِ بكل فروعهِ وتفاصيلهِ فلا احد يستطيع ان يعلِّم الاَّ باذن الحكومة ولا كتاب يستعمل للتدريس ان لم تقرهُ الحكومة . وأبطل التعليم الديني في ساعات التدريس القانونية اي صار التعليم في مدارس الحكومة علمانياً محضاً كما هو في مدارس الحكومة بفرنسا واميركا . وغرض الاتراك من ذلك منع المتشيعين للقديم من التأثير في عقول الناشئة والعود بالبلاد الى العصور الغابرة

اما من حيث الماديات فالتركي جندي وفلاَّح كما لا يخفى وكان يقال انهُ لا يستطيع

ان يكون صانعاً ولا تاجراً بدليل ان الصناعة والتجارة كانتا في يد الارمن واليونان. ولكن تركيا الجديدة كذّبت ما قيل فالغت اولاً النظام المعقوت نظام التزام العشور واصلحت زراعتها فكثرت غلاتها ومصنوعاتها وزادت صادراتها وفيها الآن الوف من اتومبيلات الحراثة وحقول كثيرة لتجارب الزراعية واصلحت سككها الحديدية وسفنها التجارية ومصلحي البوسطة والتلغراف .وقد لا يصير الاتراك من رجال التجارة المشهورين ولكنهم سيحرزون مقاماً تجارياً رفيعاً بين مجاوريهم

ومن اظهر مظاهر الانقلاب الحديث التغير الاجتماعي ولا سيما فيما يتعلّق بالنساء . فقد طُرح البرقع وقلّ الضرار والتسّري ولا يبعد ان يلغيا تماماً . قلما كنت ترى امرأة في انقرة قبل الحرب الاّ والبرقع على وجهها اما الآن فالنساء كلهنّ سافرات . واعضاء الجمعية العمومية يذهبون الى السنما مع زوجاتهم وهن سافرات وبالازياء الاوربية . وثلاثة ارباع النساء في الاستانة يسرن في الشوارع سافرات .وازيل الحاجز الذي ينفصل بين مقاعد الرجال والنساء في الترام وصارت المرأة تجلس حيثما تريد كالنساء في اوربا . وجعل الشابات يدرسن الحقوق والطب كالشبان ولهنّ جريدة تدافع عن حقوقهنّ وقد طلب بعض النابغات منهنّ ان يسمح لهنّ بالقاء خطب في الجوامع كل اسبوع في تدبير المنزل وما اشبه من المواضيع وانشئ للاحداث من الذكور والاناث مجتمع يسمّى الرجاق وهو مثل جمعية الشبان المسيحيين الغرض منهُ تقوية اجسامهم وتثقيف عقولهم وتهذيب اخلاقهم بالرياضة والخطب فانتظم فيهِ خمسة وعشرون الفاً ونشأ منهُ اهتمام شديد بالالعاب الرياضية

واهم تغيير في تركيا الجديدة حسبان الدين امراً شخصياً بين المرء وخالقهِ وان الحكومة نظام مدني يُعنى بمصالح الناس ولا شأن لهُ في السيطرة على ضمائرهم وعقائدهم ولا فيما هو من الفرائض الدينية المحضة كالصوم والحج اي ان الحكومة قائمة لاجل مصالح الناس الدنيوية كالامن والتعليم والصحة وترقية الزراعة والصناعة والتجارة وحفظ المال والعرض والدم .وخاصة الاتراك صارت تحسب الدين عائقاً في سبيل الارتقاء اما العامة فلا تزال تجلُّ الدين ولكنها صارت تحبهُ امراً شخصياً

وذكر القس شرغون ايضاً ترك الاتراك للعمامة والطربوش والقلبق ولبس البرانيط وكأنهُ متمعض من ذلك وهذا شأن كثيرين من الاوربيين كأنهم يودون ان يبقوا ممتازين عن غيرهم فلا يقلدهم احد